

في نور محمّد فاطمة الزهراء

ما كان هذا بعيداً عن الذكر، ولا كان دانياً من النسيان. ففاطمة بنت أسد، أمّ عليّ، هي التي احتضنت محمد بن عبدالمطلب، وآوته إلى حنانها منذ كفله عمّه أبو طالب، ورعته كأرفق ما تكون رعاية أمّ، وأعظم ما يكون حبّها لابن لها، هو قطعة منها حملت به، ووضعت وأرضعته، ثم سهرت عليه الليالي الطويلة، حليفة جهد وصبر وقلق ورجاء، حتّى فتى فتوةً، وشبّ شباباً، وامتلاً بالحياة، وملاً بالحياة. كانت له أمّاً هي الحدّ ب[269] والحبّ، وهي الدفء والرفق، وهي العطف ونكران الذات. * * * ما كان أعظم ما يكنّه محمد لهذه السيدة الجليلة من إعظام! ما أبلغ ما حباها من المودّة وحسن الصحبة والولاء! كانت دائماً معه وله، كأنّما تسابق في إعزازه زوجها الكريم، كانت وعمه: كافله، يوليانه من حبّهما ملء قلوبهما الكبيرين، كانا يقدرّمانه دائماً على أبنائهما الخالصين، حيثما وجب - في أعراف الناس، وناموس الأمومة والأبوة - تقديم الأبناء. وها هو يعبّر عن مشاعره الرفيعة نحوها، فيضعها في «فاطمة» الصغيرة، لكأنّه كان يرى نفسه جزءاً من حياتها، أو يراها امتداداً في الماضي لحياته، لكأنّما ودّ لو أطبق عليها جنبه، لكأنّها عدل قلبه! وهل شيء غيرها، سوى بنته الأثيرة، يعدل فؤاده؟ بل لا يدري أحد أبهذه التسمية كان الأب في محمد يكرم المولودة، أم الابن فيه كان يكرم السيدة العظيمة؟ لئن شطّ بعض الشطّ بينه وبين ابنة أسد المزار، لئن نأث[270] بعض النأي به الدار عن الدار، لئن أخذت أسرته الصغيرة من اهتمامه الكثير، أو أكثر الكثير، فلقد طلّات